

صبر الإنسان

من الأدب الروسي للعاصم
بقلم: ريكيو
ترجمة: حسين القباني

وتلاشت هذه النوبة
العابرة من اليأس في
لحظات قليلة جلس يعيدها
كنيري وزاح يرنو في
اتجاه المحلة ، ترى
ماذا يفعل بعد ذلك .



وضعت هذه القصة في بادئ الامر باللغة التشوكشية . وهي لغة لم يكن لها حروف كتابة الا في اواخر عام ١٩٢٢ . والتشوكشيون هم قوم من سكان سيبيريا انحدروا من هؤلاء السكان المقيمين في الاسكا والمعروفين باسم الاسكيمو . وقد ولد المؤلف الشاب لهذه القصة في عام ١٩٢١ ، ودرس الادب عن طريق البرنامج السوفيتي الخاص بتدريس اللغات الروسية . وقد تأثر الى حد كبير بالادب الروائي الانجليزي والامريكي الذي كان يقرأه مترجما . وان مواهب ريكوي في فن الكتابة القصصية ، تبدو واضحة في قصته هذه .

كانت الثلوج تتساقط . . . وتحول الثلج من اللون الابيض الناصع ، الى الاصفر القاتم وهو يكسو الارض الا من الرقع الطينية التي تتخلله هنا وهناك . وكانت السماء ، زرقاء ، داكنة ، والطقس دافئا . الا انه في خلال الليل القصير ، برد قليلا ، وازدادت السماء قتامة حتى اشرفت شمس الربيع مرة أخرى . وبعد ثلاثة أو أربعة أيام أخرى ، أو أسبوع على الأكثر ، كانت الشمس ستبقى بلا غروب ، الا اذا كان الغروب مجرد لمسة من الشمس لحافة الأفق ، ثم تعود للشروق مرة أخرى لكي تذيب أشعتها بقايا الثلوج . وهذا يعني أن الصباح سيبقى دائما ، في النهار وفي المساء ، بلا ليل ، حتى نهاية الصيف . وانه لشئ رائع . ففي خلال الربيع ، يستيقظ سكان المحلة مع البكور . اذ لم يكن هناك من يريد النوم ، لأن الواضح أنهم نالوا كفايتهم من النوم خلال أشهر الشتاء . ثم كيف يستطيع الصياد الاصيل أن يرقد في الفراش بينما تمرق أسراب البط فوق المحلة رأسا ؟ ولكن ما قيمة ، بط حينما يقول آنبيينير انه سمع زئير الفقعات . ولم يكن آنبيينير من الذين يتخيلون الأشياء ، فاذا قال انه سمعها ، فهذا يعني أنه سمعها حقا . وأيا كان الأمر ، فليس في هذا ما يثير العجب ، فاذا لم تزار الفقعات في الربيع ، فمتى تزار . اذن لقد آن وقت الاستعداد لأولى رحلات صيد الفقعات ، وأولى الرحلات الى البحر .

وبدأت الثلوج في الذوبان ، الا أن الشريط العريض من الجليد على الشاطئ ظل صلبا ، ورغم كثرة الشروخ التي تخللته ، الا أنه ظل كما هو ، وكان البحر في كل يوم يقرض منه أجزاء تحملها الامواج المتتابة الى الشمال . ولكن المسافة ظلت على أية حال ، طويلة تبلغ خمسة كيلومترات على الأقل ، وربما ستة ، من الشاطئ الى البحر .

ان كثيرى الصياد ليجلس الآن على حافة الجليد ،

والبنديقية على ركبتيه ، يحملق أمامه في انتظار فعمه منهورة
وكان وجهه ينم عن الرضى ، لأنه كان بجانبه على الجليد
فقمطان قد صادهما فعلا بإصابتين في الرأس . أوه . . ان
كنيرى صياد بارع . اذ يكفيه أن تبرز إحدى الفقمت
رأسها المستدير بين الأمواج

ان كنيرى ليستدفيء بعض الشيء في الشمس المشرقة
بصفاء على حزام الجليد والمحمسة بالدفع الرقيق ومن ثم
كان الطقس دافئا ، لطيفا ، شديد الاختلاف عن الشتاء الذي
كان على الانسان أن يكمن فيه - رغم صقيعه القارس - في
انتظار أن تطل إحدى الفقمت برأسها من فجوة التهوية .
أما الآن ، فانك لتؤثر البقاء على الانصراف .

وكان الوقت قد حان - بطبيعة الحال - لانصرافه . ذلك
لان رئيس المعسكر كان قد أخبر كل فرد بأن يكون في
البيدر ، القارب ، في الساعة الثامنة صباحا لاصلاح قارب
الصيد . ولا شك أن الساعة قد بلغت الثامنة الآن ، أو لعلمها
قاربتها .

وكان كنيرى قد نهض في وقت مبكر جدا هذا الصباح ،
ولم يره أحد من ثم وهو في طريقه الى حزام الجليد . وكان
قد أزمع أن يمارس الصيد قليلا ثم يعود في الثامنة ،
حسنا . . انه لن يعود قبل التاسعة على أية حال والقارب
يمكن أن ينتظر . والساعة التاسعة مناسبة على كل حال
للقيام بعمليات اصلاحه .

وانه لمن العسير على الانسان أن يرد نفسه عن مثل هذا
النوع من الصيد ، لاسيما اذا كان موفقا في يومه كما هو
شأنه في هذا اليوم . وقد شعر كنيرى ، على نحو ما ، أنه
واثق من صيد الفقمة الثالثة بسرعة . وبعدها يستطيع أن
يعود الى المحلة فورا .

ولكن الفقمة الثالثة ، مع هذا ، تأخرت في الظهور .
حسنا . . لينتظر قليلا . ان كنيرى جالس على حقيبة الصيد
المصنوعة من جلد الفقمة الناعم . مستندا بظهره الى جلمرد
من الجليد القديم . لقد عرف كيف يختار مكانا مريحا
بحيث يستطيع الجلوس فيه طيلة اليوم دون أن يتململ .
ان عليه ألا يتململ ، وألا يكشف عن نفسه بأقل حركة . .
ذلك هو أول بند في قانون الصيد .

وكان كنيرى ينفذ هذا القانون بدقة بالغة . . بدقة
أفضت به في النهاية الى الوسن بعد أن دغدغت حواسه

الشمس المحسنة ، والنسيم الرقيق ، وخرير الأمواج
وانسياب الأفكار المتراخية في ذهنه . ولكن رأسه حين
سقط على صدره ، جعله يصحو ويقول لنفسه : لقد حان
موعد عودتي ، والا فسوف يتحول نعاسي فورا الى استغراق
في النوم .

وتصور نفسه عائدا الى البيت ، ساحبا وراءه غنيمته ،
ناعما باستقبال أبنائه له ، لسوف يعطى لكل واحد من أبنائه
الأربعة هؤلاء ، عين فقمة - المنحة الأثيرة لديهم - ولو أن
فقمة أخرى أظهرت رأسها لكان لديه من العيون ما يكفي
لأفراد الاسرة جميعا .

ولمح على المدى البعيد من البحر ، باخرتين . فقال لنفسه
: اذن لقد بدأ موسم الابحار فعلا ، وراح يتساءل عن عدد
الايام التي تستغرقها البواخر في رحلاتها ، والى أين هي
ماضية ، ومن أين هي آتية ، ثم قرر أن ينتظر فترة أخرى
حتى يغدو الدخان المتصاعد في مواجهته تماما . وبناء على
هذا التقدير فان انتظاره لن يطول أكثر من نصف ساعة
أخرى . لسوف يبدأ في العودة الى البيت عندما يستطيع
أن يرى الدخان دون أن يدير رأسه . فاذا ظهرت فقمة ثالثة
في خلال هذه الفترة ، فعلى الرحب والسعة ، والا فلن يكون
الأمر على جانب كبير من السوء ، لأن فقمتين ليستا بالصيد
الهنين .

وبعد أن استقر رأى كنيرى على هذا ، اخذته سنة من
النوم . وفي هذه المرة مال رأسه برفق على كتفه ، بدلا من
السقوط على صدره . ورأى في المنام أنه يسير بغنيمته
في شارع المحلة . وقد جاء عدد كبير من سكانها - وبينهم
العجوز ماميل - لاستقباله . وبعد أن نظر العجوز الى
الفقمتين ، الواحدة بعد الأخرى ، قال : ها هو ذا معنى
البراعة في الصيد . . لقد أصاب كلا منهما في رأسها دون
أن يتلف عينيها ، وابتسم كنيرى في نومه ، فالمديح دائما
شيء جميل ، لاسيما اذا صدر من العجوز ماميل الذي طالما
انتقده في الاجتماعات ، وفي صحيفة الحائط باعتباره متلافا
كسولا .

أما الآن ، فانه يشنى عليه كبطل ، وأن عليه أن يعترف
في النهاية بأن ماميل رجل منصف حقا ، ولكن كنيرى ، من
قبيل التواضع ، يغير الموضوع ويسأل عن الوقت .
وقال كنيرى وهو لا يزال يحلم : حسنا . . يجب أن
أمضي ، لابد أن أحمل هاتين الفقمتين الى البيت ، لأنهم
ينتظرونني بالمعسكر في الثامنة .

ويستمر حلمه .. لقد وصل الى البيت ، وراح يعطى عين فقمة للصغير كول - كا . ويأخذها أصغر أبنائه ، ويلصقها على وجنته . وتنتفخ وجنته .. وتغدو كبيرة الى حد غير معقول . وتلتصع عين الفقمة فى وسط الانتفاخ وتزداد وضوحا بالتدريج . لا .. ليس هذه عين فقمة .. انها عين ماميل ان العجوز يرفع عينه اليه ويقول له بحزم : « اذن فقد هربت من الطابور مرة أخرى أثناء انتظارهم لك فى المعسكر ، لكى تمضى الى الجليد » ويشعر كنيى بالخجل ، ويرتعد تحت وطأة نظرات ماميل انه يريد أن يجرى ، ولكنه لا يستطيع . يريد أن يقول أنه لا يزال فى الوقت متسع للوصول الى المعسكر ولكن لسانه معقود .

واختفت عين ماميل لحسن الحظ . وان كنيى الآن فى قارب بالبحر ، لقد أوقف المحرك وتركه يتأرجح على الأمواج برفق ،

ولما استيقظ ، بدا له ، كما حدث فى المرة الأولى ، أنه لم ينم غير لحظة واحدة . وتطلع الى الدخان ، ولكنه لم يجد به أثرا ، ترى أين ذهب ، انه يقينا لم ينم حتى مرت الباخرتان واختفى الدخان وراء الافق . وتشاب كنيى بعمق وهو ينهض واقفا ، ثم تمطأ وفرك يديه فى جنبه ، وشعر بالجر قد برد وكأنما تلاشى الدفء من الشمس ، وانحنى ليربط الفقمتين ، ثم اذا يحس بهذه الأرجحة الخفيفة التى أحس فى حلمه . ولما انتصب واقفا ونظر الى الشاطئ ، أنكمش فى نفسه فزعا . وسقطت الفقمتان من يديه ، لقد وجد نفسه طافيا فى البحر على سطح قطعة جليد ضخمة انفصلت عن الحزام الجليدى وهكذا وجد نفسه فى وسط مساحات هائلة من المياه ، ومن بعيد جدا بدت الحافة المنعرجة للشاطئ الجليدى ، أما المحلة فلم يكن لها أثر على مرمى البصر .

واندفع كنيى الى حافة الطوف الجليدى وراح يستغيث بأعلى صوته . وبلا كلمات ، وبلا أمل أخذ يلوح بذراعيه فوق رأسه ، ويضرب الجليد بقدميه وهو يزأر كحيوان جريح . ولما أنهكه التعب ، سقط على الجليد والحشيرة الصوتية تند عن حلقه .

وتلاشت هذه النوبة العابرة من اليأس فى لحظات قليلة جلس بعدها كنيى وراح يرنو فى اتجاه المحلة ، ترى ماذا يفعل بعد ذلك ؟

وأم يستطع رغم كل محاولاته أن يفكر فى شيء . وهكذا

لم يبق أمامه الا الانتظار ، الانتظار حتى يتم انقاذه ، وما عليه الا أن يتجلد أطول مدة ممكنة • أن معه فقمتين وكمية من الطلقات النارية يمكنه بها أن يصيد اثنتى عشرة فقرة أخرى ، أو عشر على الأقل • وهذا يعنى أن لديه طعاما لمدة طويلة أطول مما يستطيع أن يقدر ، لأن طوف الجليد لن يستمر كل هذه المدة •

لا •• أنه بالتأكيد لن يموت جوعا ، ولكن الخطر الأكبر يكمن فى أن الطوف الجليدى يتناقص يوما بعد يوم ، ويفقد أرق وأضيق من أن يصلح للبقاء عليه ، وأخيرا سوف يذوب تماما ويختفى ، فاذا لم يتم انقاذ كنيرى قبل ذلك اليوم ، فانه لن يرى زوجته وأبنائه وأصدقائه • اذا لم ينقذه أحد لطوف الجليد المتماسك ، فسوف يهلك حتما •

وبدا كنيرى يفكر فى الصيادين الذين حملتهم الى عرض البحر أطواف الجليد • انرين ، ابن جيموج النقاش ، حمله طوف وهو لا يزال غلاما فى الخامسة عشرة من عمره ، وإن كنيرى ليستطيع أن يذكر هذا الحادث بوضوح لأنه اشترك فى عمليات البحث • ولما ينس الجميع من العثور عليه ، اذا به يعود بعد عشرة أيام • لقد أعاده الى أهله جماعة من الصيادين فى محلة مجاورة كانوا قد عثروا عليه فى حالة ارهاق شديد فوق الجليد •

ويقال أيضا أن ماميل حمله طوف جليدى ذات مرة ، ولكن ذلك كان منذ أمد بعيد ، قبل أن يولد كنيرى • وكان ماميل قد حمل مسافة بعيدة الى شاطئ غريب • ويقال أنه ظل يهيم فى مناطق غريبة مدة سبع سنوات ، ولكنه عاد فى النهاية الى محلته •• نعم •• عاد •

ولكن ماميل كان قد حمل فى الشتاء ، ومن ثم فلا وجه للمقارنة ، ذلك أن طوف الجليد فى الشتاء لا يقل صلاحية عن الطوف الخشبي ، أى أن فى مقدورك أن تطفو عليه شهرا ، وربما شهرين قبل أن يذوب • أما فى الربيع ؟ لقد قالوا أن صيادا حمله جليدى من أنجويما فى ربيع العام قبل السابق ، وأنقطعت أخباره بعد ذلك • ولا شك أن الطوف الجليدى كان صغيرا ودهب بسرعة • وفى مثل هذه الظروف لا يستطيع الانسان أن يبقى طويلا على قيد الحياة فوق طوف جليدى • أن الشمس تسخنه ، والأمواج تؤرجحه فيذوب الى قطع صغيرة كما يحدث للسكر فى قذح شاي •

وان كنيرى ليتمنى أن يدفع أى ثمن لكى يغدو فى تلك اللحظة جالسنا فى بيته الى مائدة الطعام وأمامه ابريق ساخن من الشاي ليدفئ يديه بوضعهما عليه ، وليرتشف منه قليلا قليلا مستمتعا باستنشاق شذاه العاطر .

وكان عليه أن يدرك خطورة موقفه منذ الدقيقة الاولى . . منذ اللحظة التى وجد نفسه فوق الطوف الجليدى . وكان كلما فكر فى هذا ، ازداد ادراكا بأن الأمل فى انقـاذه ضعيف - بل يكاد يبلغ حد المستحيل . وتذكر أبنائه ، وسرعان ما قال لنفسه « اننى س أراهم مرة أخرى ، وأضيفت الى المشاعر الغامضة عما سوف ينتظره ، فكرة الموت . وكان فى اللحظة الاولى قد شعر بخوف وحشى أما الآن فقد انتابه الحزن الذى بلغ أعماق نفسه

ونهض كنيرى ببطء وذهب الى حقيبة الصيد . وكان عليه أن يسير بحذر وببطء حتى يحافظ على كيان هذه القطعة الجليدية الذى تتوقف عليها حياته . وعاد يجلس على حقيبة الصيد وبدأ يفكر . وكانت الشمس قد مالت كثيرا نحو الغروب .

ولست الشمس الأفق وصنعت طريقا ذهبيا لامعا يمتد من الطوف الجليدى عبر المياه الى حيث يغوص قرصها وراء البحر . وكان النصف الأسفل منها قد غاب وراء الأفق ، ولم تلبث أن اختفت بأكملها وكأنها غربت ، وانطفأ الطريق الذهبى ، وازدادت السماء قتامة . ولكن كنيرى كان يعلم أن الشمس لن تلبث أن تشرق بعد قليل ، وتبدأ فى اذابة الثلوج خلال نصف ساعة . . . ولسوف تعود للظهور مرة أخرى الى اليمين قليلا - من حيث اختفت .

ولم يكن كنيرى من نوع الرجال الذين يستسلمون للاكتئاب مدة طويلة . انه لم يهتم كثيرا لأن الاحوال بالنسبة اليه لم تتحسن ، وأنه لم يشعر بأنه أسعد حالا من الامس . كل ما فى مقدوره أنه لا يستطيع أن يكتئب طويلا . أن أخطر المواقف وأدعاها لليأس لا يمكنها أن تثير فى نفسه الاكتئاب الا لمدة قصيرة جدا . ان الاحوال قد تبقى كما هى . ولكن الاكتئاب لا يبقى .

والتمس شبيثا من العزاء حين وجد الصبح مغيما بعض الشيء . فهذا يعنى أن الخطر فى سرعة ذوبان الطوف الجليدى سيكون أقل مما لو كان الصبح مشرقا .

كان التيار يحمله تدريجيا نحو الشمال . . فيقترب به شيئا شيئا نحو بحر تشيكوتسك . ولكنك لو نظرت بامعان لوجدت أن من الممكن رؤية الشاطئ الذى لم يكن سوى خط ضيق باهت اللون يكاد يمتزج بالضباب . وهذا يعنى أن المسافة ليست بعيدة على جماعة الانقاذ ، إذ أن فى مقدورهم قطعها بسرعة فى زورقهم البخارى ومعهم مناظيرهم المقربة .

والشئ التالى الذى فعله كنيرى ، هو قيامه بجولة فحص وتفتيش فى جوانب الجزء الباقى معه من الطوف الجليدى . وبعد أن فحص بدقة كل شرح . وجد أنها شروخ بسيطة عند الاطراف . وفى أثناء الليل لم ينفصل عن الطوف غير قطعة جليدية لا تزيد فى الحجم عن رأس فقمة . وقد ابتعدت الآن نحو ثلاثين كيلومترا .

وكانت مساحة الطوف الجليدى لا تقل عن مساحة بيت كبير . وكانت به نتوءات مرتفعة فى خطوط مستقيمة تقريبا ، يبلغ ارتفاع بعضها قمة رجل ، وبعضها الآخر أقل ارتفاعا . وكان ثمة بركة صغيرة قد تكونت من الماء العذب المذاب من الجليد بين النتوءين الأوسطين . وكان ثمة أطواف جليدية كثيرة قد انفصلت عن الشاطئ الجليدى وأخذت تطفو على سطح البحر وعلى مسافات بعيدة من بعضها البعض .

ونقل كنيرى متاعه الى وسط الطوف على سبيل المزيد من الحذر والاحتياط . وكان المتاع يتكون من بندقيته والفقمتين وحقيبة الصيد ، وهرادة الصياد والخطاف الذى يلقى به الى الماء ليسحب الفقمة المصابة . وبعد ذلك سلخ الفقمتين وقطعهما ووضع لحمهما فى أسفل أحد النتوءات . وتناول افطاره من كبد الفقمة . ورغم أنه أكلها نيئة ، إلا أن هذا لم يضايقه كثيرا . لقد كانت أسنانه قوية من نوع الاسنان التى تنفذ فى جلد الفقمة . فما بالك بلحمها ؟ ورغم أن مذاقها كان غريبا بعض الشئ إلا أن جوعه الشديد عندئذ جعل كل شئ يأكله يبدو لذيذا .

واختتم طعامه بعين الفقمة ، باردة ملحة ، بعد أن غسلها فى ماء البركة وجمع كل الشلوج المتبقية وصنع منها جدارا فى الجانب الجنوبي من البركة . وبذلك اطمأن الى الماء لن يتحدر حتى لو صفت السماء ، لأنه سيكون فى ظل الجدار . وأهم من هذا فإنه يضمن بذلك ألا يضيع الثلج فى

البحر عند الدوبان ، بل سيجتمع في البركة ويزيد مؤونته من الماء العذب ، ولفرط سروره بهذه الفكرة جمع كنيري المزيد من الثلوج الصفراء المتناثرة هنا وهناك ليزيد من ارتفاع هذا الجدار الاوسط .

وماذا عليه ان يفعل بعد ذلك ؟ ان كنيري يجلس على حقيقة الصيد الجلدية ويشغل نفسه بتنظيف بندقيته . ألم يكن من الافضل لو أنه أطلق بضع رصاصات بالامس عندما اكتشف الكارثة . لا . ما كان ثمة أحد ليلاحظ ما حدث . فقد كان هناك صيادون كثيرون يطلقون البنادق بالقرب من المحلة ، وما كان إطلاق الرصاص على الفقمات ليثير انتباه أحد . وعلى أية حال ، هل يفيد الندم على شيء لم يفعله بالامس ! ليس هناك ما يستطيع أن يفعله الآن . بل ان كنيري ليبتسم قليلا الآن وهو يذكر كيف زار وضرب الجليد بقدميه . ومن حسن حظه أن أحدا لم يره .

وما الفرق ، في المدى الطويل ، بين قيام أحد بالبحث عنه بالامس أو اليوم . ان الامر لا يعنى أكثر من البقاء بضع ساعات أطول على الطوف الجليدي . وان لديه اللحم والماء العذب ، ومن المحتمل أن يظل الطوف متماسكا أسبوعا . ومن ثم فسوف يكون لديه ، على الأقل ، شيء يتحدث عنه عندما يعود الى المحلة .

ان البحث عنه لا بد قد بدأ الآن ، ومن ثم فليس هناك ما يشير قلقه الى حد كبير . ولكن ماذا لو ان البحث لم يبدأ ، ماذا لو أنهم لن يقوموا بأى بحث عنه ؟ ان زوجته سوف تهرع بطبيعة الحال الى قاميش رئيس مجلس ادارة المزرعة الجماعية . ولكن ماذا لو أن قاميش رفض أن يرسل أى فريق من الرجال للبحث عنه ؟ هل فقدت زوجك كنيري ، أتظنين أنه قد يكون حمل الى البحر على طوف جليدي ، حسنا ، وماذا لو حدث هذا ؟ أنه يستحق ما يجرى عليه . وأنه لخير لنا ولك أن نعيش بدونه . مافائدة هذا الكسول ؟ اننى ما كنت لآخذ رجالا عاملين من أعمالهم لاجعلهم يغامرون بحياتهم من أجله . بل ما كنت لأغامر بالقارب أيضا . انه لا يزال في البحر كثير من الثلوج العائمة ، فماذا أفعل لو اصطدم القارب بها وتحطم ؟ لا ، اننى في حاجة الى جميع رجالى هنا في المزرعة الجماعية .

ولو كان ماميل - عضو مجلس الادارة - بجانب قاميش

وفى مرات أخسرى كان يذهب الى المخفر القطبى ليلعب
الشطرنج مع مندوب الاسعاف فيه .

وبمناسبة الشطرنج ان كنيرى هو احسن لاعب فى
مزرعة مورننج الجماعية . وحتى فى مباريات المنطقة كان
دائما بين الفائزين الاول ، وفى ذات مرة ارسل الى انادير
ليشترك فى مباراة اقليمية ولكن رجال المزرعة الجماعية ،
ولاسيما أعضاء مجلس ادارتها لم يكونوا ، على نحو ما ،
يهتمون كثيرا بهذا الامر .

صحيح ان كنيرى اخطأ فى مباريات انادير وجاء ترتيبه
الأخير ، من ثم لم يرسل مرة أخرى للاشتراك فى مباريات
الشطرنج التى اقيمت بين لاعبى المزارع الجماعية فى مدينة
خاباروفسك . وقد قال له ايجنتو الفائز - الذى كان راعى
غزلان فى منطقة آفوى الكبرى ، قبل سفره الى خاباروفسك
« انك تستطيع ان تلعب جيذا با كنيرى . ولكنك لا تعرف
شيئا عن منهج اللعب ، ولا بد للاعب ان يجيد دراسة المنهج »

ووضع كنيرى البندقية جانبا ، ونهض وراح يتلفت حوله:
ولاح له انه غدا الساكن الوحيد على سطح الارض . ولكنه
ليس على الارض الآن ، بل على سطح الماء . لاشك انه
سيحمل معه قصة ممتعة ليسردها على عائلته .

ومرة أخرى التقط بندقيته ، وسرعان ما استغرق فى
تفكير عميق .

ها هو ، حقا ، ذو نفع كبير لعائلته ؟ ان زوجته تيون
تكسب فى اليوم ضعف ما يكسبه أى عامل فى المزرعة
الجماعية . وان العائلة كلها تعتمد عليها فى معاشها . انها
واحدة من أبرع الحياطات فى المعسكر . ولا تفوقها فى
عملها الا العجوز والتين .

وحول كنيرى - بتفاؤله الطبيعى - أفسكاره الى زوجته
وأبنائه ، وبهذا مسح كل آثار اكتئابه الناتج من نقده لنفسه .
وشرع يفكر فى زوجته مزهوا وكأنما كان هو - وليسست
والتين العجوز - الذى علمها فن التطريز على الملابس المصنوعة
من جلود الرنة .

وتذكر أبناء التوائم بحنان خاص . أنهم زوجان من
التوائم ، وتلك سعادة لم تكن ميسورة لغيره . حقا ان ما
حدث كان شيئا تلقائيا ، فلا يحسب له أو لينتوون أن يزهو

بذلك . ومع ذلك فعندما رزق بالتسوأين الثانيين نشرت
نشرت صحيفة المعسكر الخبر ، واستبقى الأطباء تيون في
مستشفى الولادة شهرا كاملا ، لانهم كانوا شديدي القلق
على التوأين ، كما خشوا أن يصابا بنزلة برد عند عودتهما
الى البيت . ولما أحضرت الباخرة الأكواخ الخشبية الجاهزة
بعد ذلك ، منح كنيرى واحدا منها . وكان توزيع الأكواخ
يخضع لنظام دقيق تطبقه لجنة التوزيع بالمنطقة . وكانت
المحلة يومذاك مكونة ، فى جملتها ، من المخيمات ولم يكن
فيها غير خمس عائلات تتمتع بسكنى المنازل . وكان كنيرى
وأبطاله الأربعة من بين هؤلاء المحظوظين .

ترى ماذا يفعل هؤلاء العفارىت الصغار الآن !! ان
ايلجىلى وأميرل - كوت صارا فى السن التى تجعلهما يفهمان
الحزن الذى سيبدو على وجه أمهما ، ويدركان أن شيئا ما قد
حدث لأبيهما بل ان الاصغرين قد صارا فى السن التى
تؤهلهم لفهم أشياء كثيرة ، اذ بلغا الثالثة من العمر وكانت
تبون هى التى أرادت أن تطلق عليهما أسماء روسية تكريما
للأطباء الذين أحاطوها بكل رعاية ممكنة ومن ثم سمي
أحدهما كوليان « نيكولاى » والآخر ساشا « ألكسندر » .
وكان بين الأطباء واحد يدعى نيكولاى بتروفيتش وهو جراح
أول ، وآخر يدعى ألكسندر ايفانوف .

ووافق كنيرى فورا زوجته على أن من الواجب تسمية
الطفلين نيكولاى وألكسندر ، وقد خطر له الآن ، للمرة
الاولى ، أنه ما داما يحملان أسماء روسية ، فلا بد لهما من
اسم ثان « لقب » عندما يكبران وعندما ينتهيان من دراستهما
الثانوية ليدخلا أحد المعاهد العليا .

لقد كان كنيرى يريد ، بكل تأكيد ، أن يواصل أطفاله
تعليمهم . واذا كان ابن آتيك يدرس فى جامعة لننجراد ،
فلا بد أن يذهب أطفاله الى لننجراد أيضا يسجلون أسماءهم
فى سجلاتها الجامعية السميكة . لقد كتب كنيرى اسمه فى
سجل سميكة عندما ذهب الى مباريات أنادير ، ولكنهم
لم يسألوه عن لقبه ، لان كل فرد من الاهالى فى تشوكنكا له
اسم واحد فقط . ولكن الامر فى لننجراد يختلف . فهناك
سيحتاج كل ابن من أبنائه الى اسم ثان . فكيف سيكون
هذا الاسم ؟ نيكولاى كنيريفتش ، ما أعذب رنين هذا الاسم ؟
وألكسندر كنيريفتش .

ولكن ماذا لو أن كولييا من يرئى أباه مرة أخرى ؟ وعندما يكبر سيقولون له ان أباه كان شخصا تافها كسولا . انك لا تستطيع أن تتأكد مما سيقوه الناس عن شخص ما ، لا سيما اذا كان ميتا .

ولم يعد كنيرى يشعر بأى جزع ، لقد كان يفكر على هذا النحو عامدا ، لكى يعبت بنفسه . ذلك أنه كان واثقا ، لسبب ما ، أن زورفا بخاريا سوف يظهر سريعا ، بل سريعا جدا . وما عليه الا أن ينتظر فقط .

ولم يشأ كنيرى أن ينتزع نفسه من هذه الخواطر اللطيفة ، ولكن كان عليه أن يهض ، ويتناول هراوته ويمضى الى طرف الطوف الجليدى . ذلك أن كتلة جليد ضخمة كانت تقترب ، فاذا اصطدمت بطوفه ، فقد تسوء الامور معه الى حد خطير . فان الصدمة قد تحطم الطوف ، ومن ثم عليه أن يقف فى الطرف ويبعد الطوف بهراوته عن الكتلة الجليدية الطافية .

ولم يشعر بسرعة اندفاع الكتلة الجليدية نحوه الا عندما وصل الى طرف الطوف الجليدى ، ومن ثم وقف بعد أن أفسح ما بين قدميه ، وأمسك بهراوته مصوبة الى جرم الكتلة الجليدية . ولكن الهراوة انزلقت على الجرم ، وقبل أن يسترد توازنه ، سقط على الجليد ، ثم اذا هو يسمع صوت ارتطام خفيف .

ووثب كنيرى واقفا وتلفت حوله ، رحدث ما كان يتوقعه ، فقد رأى الطوف الجليدى قد انقسم الى نصفين ، وكانت بندقيته وحقيبة صيده فى النصف الآخر . ولما وثب ليقطع الفتحة بينهما ، سقط ، ولكنه تمالك نفسه ، وأمسك بالاثنتين : البندقية والحقيبة ، الا أنه لم يستطع أن يقرر الوثب عائدا الى حيث ترك الهراوة ولحم الفقمتين ، وأسوأ من هذا أنه وجد النصف الذى تركه أكبر ، ومع مرور كل لحظة كانت الفجوة تتسع ، وأصبح أمام كنيرى الآن ممر مائى قائم اللون . ولو أنه رأى هذه الفتحة فى أول الامر ، لما وجد فى نفسه الشجاعة للقفزة الاولى ، رغم أنها لم تكن عندئذ على مثل هذا الاتساع . اذن لقد أحسن صنعا حين قفز دون أن ينظر الى أسفل . وأسرع كنيرى وفك الحبل المنتهى بخطاف وألقى به عفوا . وتعلق الخطاف بأحد النتوءات على النصف الآخر ، وتوتر الحبل الى حد شديد .

لو أنه انقطع الآن ، لضاع كنيرى ، لانه ما كان ليستطيع

أن يفعل شيئا بدون خطاطيفه • وإن بندقيته ستكون بلا جدوى ، لأنه حتى لو أصاب فقمة في مقتل ، لعجز عن سحبها بدون خطاف •

وأخذ الحبل المشدود يحز في يديه ، وجف حلقه من فرط التوتر وسرت الرعدة في كل جسمه ولكن الفتحة المائية القائمة توقفت عن الاتساع ، وتوقف نصف الطوف الجليدى عن الابتعاد • نعم • توقف هذا النصف كأنما يفكر في الخطوة التالية ، ثم بدأ في الاقتراب تدريجيا ، وهكذا خف ضغط الحبل على يديه في النهاية •

ولما ضاقت الفتحة بين النصفين ، اجتازها كنيرى بسهولة ، وبعد أن تأكد من وجود لحم الفقمتين في مكانه ، حمل بندقيته وقذف بحقيبة الصيد ، ثم سقط من فرط الارهاق • ولما شعر بجفاف فمه ، استدار الى بركة الماء العذب ليلاحظ أن الجليد انقسم عندها تماما ، وهكذا ضاعت بركته العذبة الحبيبة • • جرى ماؤها العذب الى البحر ، واختفى أيضا رصيد الثلج الذى جمعه للطوارئ •

ولم يبق من مملكة - كنيرى الجليدية الا قطعة صغيرة • • قطعة صغيرة لا تزيد عن نصف ما كان يمتلكه قبل ساعة واحدة ، ولا يمكن أن تقاوم الذوبان أكثر من يومين مشمسين • وفى اليوم الثالث دخل كنيرى بحر تشوكوتسك ، ولم يعد للشاطئ أثر على مرمى النظر • وكان يخيل اليه أحيانا أن الحقول الثلجية البعيدة عند الافق ، هى خط الشاطئ • ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أنها أطواف جليدية حملها التيار القوى الى عرض البحر •

وكانت السماء أكثر صفاء من اليوم السابق ، وكانت تلك علامة سيئة جعلت كنيرى يقول لنفسه « يجب أن أغير معسكرى ، وفى أسرع وقت ممكن » •

وقرر أن ينتقل الى طوف جليدى أحسن فى أول فرصة ممكنة ، وذلك بعد أن جرب عملية الانتقال ولكنه ظل طيلة النهار ، وكأنما أراد القدر أن يسخر منه ، دون أن يرى فيما حوله طوفا جليديا صالحا للانتقال اليه •

وتناول كنيرى وجبة كبيرة من الطعام ، ولكنه لم يلبث أن ندم عليها بعد ذلك • لأنه ما كاد أن يملأ معدته بأسراف حتى بدأ يشعر بالظما الشديد

وفى ذات مرة سمع من بعيد زئير فقمة ، فقال لنفسه

« لقد كان انبذير على حق .. » لقد بدأت الفقمات فى الزئير
حقا .. ترى كيف أمكنه أن يسمعها قبل أى فرد آخر ! انه
دائما يسمعها قبل الجميع فى الربيع ، ولهذا كان معسكره
يستعد لرحلات الصيد قبل غيره من المعسكرات .

وتحولت أفكار كنيرى مرة أخرى الى المحلة ، ولكنها .
أى أفكاره ، كانت أقل تفاؤلا منها فى الليلة الماضية . انه
لم يعد واثقا من نهاية سعيدة . وعاد مرة أخرى يفكر فى
سمعته السيئة ، وفى المخاوف التى بدت بالامس لا أساس
لها ومن ثم تحرر منها بسرعة . انهم طبعاً سيبحثون عنه ولكن
المشكلة هى : كيف سيبحثون ، لو أن انبذير ترأس فريق
الباحثين ، أو نتوفجى ، أو قاميش نفسه لكان العثور عليه
قد تم منذ مدة طويلة . انهم ما كانوا ليراسلون قارباً بخارياً
واحداً ، وانما جميع القوارب البخارية وغيرها من الاطواف
التي تمتلكها المزرعة الجماعية .

وللمرة الاولى منذ انفصلت القطعة الجليدية به عن
الشاطئ ، خامر كنيرى بقوة عارمة الاحساس بالعزلة التامة ،
ولعلها أول مرة فى حياته يشعر فيها بمثل هذا الاحساس .

وعند الظهيرة ، اقتربت منه قطعة جليدية لا بأس بها ،
محاطة بمجموعة صغيرة من القطع الجليدية الاخرى ، حتى
غدت على بعد عشرين متراً منه . وقذف خطافه الى الطوف
الجليدى الكبير وشد الحبل بقوة ، ولكن القطع الجليدية
المحيطة به ، منعتة من الاقتراب من طوفه الصغير بما فيه
الكفاية . وعبثاً حاول أن يبعدها بهراوته . اذ كان كلما
أبعد قطعة منها ، اندفعت الى مكانها قطعتان أو ثلاث .

ولكن كنيرى لم يرغب فى التخلي عن هذه الفكرة ، اذا
كان هناك بعض الثلوج فوق الطوف الجليدى الآخر ، وهذا
يعنى توافر الماء العذب الذى أصبح من أهم ضروريات حياته
فى تلك اللحظة ، بل انه صار أكثر ضرورة من رغبته الملحة
فى الانتقال الى طوف أكبر مما يقف عليه الآن - هذا الطوف
البائس الذى لن يلبث أن يذوب فى خلال يوم آخر تنم
شمسه على أنها ستظل ساطعة .

وكان هناك قطعة أو اثنتان بين القطع الصغيرة ، يبدو
أنهما تصلحان للوقوف عليهما واتخاذهما جسراً الى الطوف
الكبير ، ورغم ما فى هذا الاجراء من خطر ، فقد قرر كنيرى
أن يجازف بالعبور عليهما اذ لم يكن هناك طريق آخر ،

وبحركة عارمة من ذراعه ، قذف بحقيبة الصيد الى الطوف
الجديد ، ثم علق بندقيته الى كتفه ، وربط الحبل حول
وسطه ، قائلا لنفسه : لسوف اترك لحم الفقمين هنا في
الوقت الحاضر ويمكنني احضاره وأنا هناك .

وبعد أن اختبر بهراوته أقرب القطع الثلجية اليه ، خطا
فوقها ، ومنها الى قطعة أخرى ، ثم الى ثالثة ، حتى اذا أصبح
قريبا من بغيته انزلت قدمه وسقط على ركبتيه ، ومالت
قطعة الثلج بعنف ، واذا هو يسقط في الماء . واضطرب في
الماء البارد ، وحاول أن يتشبث بقطعة الثلج الكبيرة ، ولكن
بندقيته وملابسه الثقيلة المبللة أخذت تغوص به ، واختفى
رأسه تحت الماء بضع مرات . وفي مرة منها ظل مختفيا مدة
طويلة بحيث لاح كأن الامواج أطبقت عليه الى الابد . الا أنه
طفأ مرة أخرى وهو يبصق الماء الاجاج ، وراح يبذل ما تبقى
من قواه ليبقى سابحا .

واحتكت يده مصادفة بحبل الخطاف الذي كان لا يزال
مربوطا حول خصره ، وكان قد نسي أمره الا أنه سحب يده
في أول الامر خوفا من أن تشدسبك فيه ، ثم اذا هو يدرك
عندئذ فقط أن الحبل يمكن أن ينقذه ، ومن ثم راح يشق على
نفسه بالسباحة ليقرب من الطوف الجليدي الجديد ، ولكنه
غاص مرة أخرى تحت سطح الماء ، ومع ذلك فقد ظل يدفع
نفسه نحو الحافة .

وأخيرا زحف عليها ورقد فوق الجليد يلهث . وشرعت
المياه تنساب من فمه وأنفه وأذنيه ، كما شعر هو بصداغ
رهيب . وكانت الخدوش الناشئة من الثلج المكسر قد ملأت
يديه ووجهه ، فأخذت الدماء تنساب منها بلا توقف .

ولما استرد أنفاسه بعض الشيء ، زحف بضعة أقدام
وراح يلحق بنهم الثلج الملقى على أرضية الجليد ، ثم استدار
ورقد على ظهره التماسا للقليل من الراحة ، ولكن بلل ملابسه
جأله يشعر بالبرد الشديد ، فنهض وخلعها عنه .

وراح يدلك جسمه المتجمد بالثلج ، وسرعان ما شعر
بالدفء يسرى فيه . ثم فك الحبل من الخطاف الغائص في
الجليد ، وشده بين نتوئين ، ونشر عليه ملابسه ، ولكن ثقلها
جعل الحبل يتراخى ويسقط .

وتلفت حوله باحثا عن الهراوة ، فوجدها ملقاة على

احدى قطع الثلج الطافية حول الطوف الجليدى ولكنه استطاع ، لقربها ، أن يستردها وأن يتخذها مدقا لعصر المياه من ملابسه . وليت زوجته تيون ترى كيف يجيد عمل كل شىء ، وكأنه ربة بيت مدربة .

وفى تلك اللحظة فقط تذكر لحم الفقمتين الملقى على الطوف الجليدى المهجور . وفيما هو يهم بفك حبال الحطاف ، رأى أن أطولها لن يصل الى الطوف القديم الذى كان قد ابتعد بسبب التيار حتى أصبح على مسافة تزيد عن مائة متر .

ولم يهتم كئيرى بما حدث الى حد كبير . لقد كانت لديه ذخيرة من الرصاص ، وفى مقدوره ، من ثم ، أن يحصل على الطعام . وقد لاحظ مرات عديدة فى اليوم السابق بعض الفقعات تبرز بحيازيمها المستديرة فوق الماء . ولم يشأ فى ذلك الحين أن يصيدها ، لانه كان يمتلك لحم الفقمتين .

وجلس كئيرى على حقيبة الصيد ، وطوى ركبتيه بشدة تحته ، وراح ينظف بندقيته باهتمام كبير . وادفاته الشمس ، ولكن عندما غابت وراء كتلة سحب ، ازداد الهواء برودة ، فراح يقوم ببعض ألعاب القوى التى لم يكن لها مثيل فى أى كتاب خاص بهذه الألعاب .

وسرعان ما جففت الشمس ونسائم البحر ملابسه . فلما ارتداها جلس على حافة الطرف والبندقية فى يده وراح ينتظر الفقعات

وما أشد الفرق بينه الآن ، وبينه عندما كان لا يحمل للدنيا هما ، ان ملابسه الآن ممزقة ومكششة ، ووجهه الذى غدا نحىلا ، ملىء بالخدوش والكدمات .

انه يجلس على حافة الطوف الجليدى ، تماما كما جلس قبل يومين على حافة الشاطئ الجليدى وأخذ يمد عينيه على سطح الماء بحثا عن آثار للفقعات . وقد لمحها مرتين ، ولكنها كانت بعيدة وكان هو قد قرر ألا يطلق بندقيته الا اذا تأكد من اصابة الهدف .

ولما رفع عينيه الى السحاب الخفيف ، شعر كأن طوفه الجليدى يسبح أيضا فى الجو ، ويتأرجح خفيفا على أجنحة النسيم .

وكان السكون العميق مخيما بحيث يمكن للإنسان أن

يسمع من بعيد أية همهمة خفيفة وبين الحين والآخر كانت قطعة من الجليد تنفصل من أحد الاطواف الجليدية وتسقط فى الماء محدثة صوتا كالطشيش ثم يخيم السكون مرة أخرى .

وفجأة سمع كنيرى زفيفا خافتا رتيباً . ترى هل هو يحلم ؟ ان الزفيف البعيد يزداد ارتفاعا ووضوحا ، ومن ثم قال لنفسه « انه قارب بخارى » ثم وثب واقفا وراح يمد البصر الى سطح البحر آملا أن يرى قارباً بين الامواج .

ورغم أن كنيرى لم ير أثرا لقارب ، الا أنه كان واثقا من سماعه زفيف محرك ما . ولما رفع عينيه الى السماء فى لهفة ، لم يلبث أن رأى طائرة فى الافق البعيد . ترى أيمكن أن تمر فوقه دون أن يرى قائدها رجلا واقفا فوق طوف جليدى ؟

وامسك بندقيته وأطلقها مرتين . وابتعدت الطائرة قليلا ، ثم استدارت نحوه ، ومن ثم هتف كنيرى مبهتجا :

— لقد سمعنى .. سمعنى

ولكن الطائرة ، مع هذا ، لم تزد اقترابا . لقد طارت مسافة قصيرة ، ثم استدارت مرة أخرى وأخذت تحوم وتدور على ارتفاع قليل ، وأدرك كنيرى أنها أرسلت للبحث عنه .

وعاد يطلق بندقيته مرة أخرى ، لا للاستغاثة ، وانما تحية للطائرة . وشعر أنه لم يعد قادرا على انتظار رؤية الطيار له ، فقد كان يتوفز بالفرحة وكانت الלהفة تستبد بيده التى تعيد حشو البندقية ، ودفعه الخوف من أن يخطئ الطيار رؤيته ، الى اطلاق البندقية المرة بعد الأخرى حتى نفذت ذخيرته .

والقى بالبندقية من يده ، وشرع يجرى حول الجليد ، وكان يبدو للرائى أنه رجل فقد عقله ، ولكنه كان مدفوعا الى هذا بحافز ينم عن الذكاء وحسن التقدير . لقد هداه التفكير الى أنه من العسير رؤية رجل من بعيد وهو واقف لا يتحرك ، بينما تسهل رؤيته اذا ظل متحركا .

الا أنه ، مع هذا ، سرعان ما توقف حين رأى الطائرة تبتعد ، وظل يشيعها بنظراته مدة طويلة .

انه الآن يستطيع أن يحدد موقفه .. لقد أخطأته

الطائرة ، ولم يعد لديه رصاصات للبندقية كما لم يعد لديه طعام ، ولا وسائل الحصول عليه .

ومع هذا فان موقفه لم يبد ميثوسا منه تماما ذلك انه كان لا يزال يشعر منذ الصباح بلذة النصر لنجاحه فى الخروج من الماء الى هذا الطوف الجليدى الجديد يضاف الى هذا يقينه بأنهم بدأوا البحث عنه بمعونة الطائرات . ومادام الامر كذلك فلا بد أن يعثروا عليه .

ما الداعى اذن لليأس ؟ ان الطوف الجليدى كبير ، اكبر كثيرا من هذه الكسرة الجليدية التى كان عليها فى ذلك الصباح ، وان لديه الكثير من قطع الثلج فضلا عن ثلاث برك صغيرة من الماء العذب . وما دام قادرا على اطفاء ظمأه ، فانه يستطيع أن يعيش بلا طعام فترة لا بأس بها وان الصبر من اهم صفات الصياد البارع .

وهناك احتمال فى عودة كسرة الجليد التى تحمل لحم الفقمتين اليه مرة أخرى . وان هذا الامل ليداعب أعماق نفس كنىرى . وان كسرة الجليد لا تزال طافيا على الماء ، ولا يزال هو قادرا على رؤية لحم الفقمتين فوقها . ان التيار الذى حملها بعيدا قد يردها اليه ، فاذا اقتربت فى نطاق خطافه ، فانه لن يخطئ الهدف .

ولم يكن هناك ما يدعو بطبيعة الحال - الى أن يترك لحم الفقمتين على كسرة الجليد اذ أدرك الآن أنه كان فى مقدوره أن يقطع اللحم ويقذف به الى هذا الطوف الجليدى الجديد كما فعل بحقيبة الصيد . وأيا كان الامر فقد كان من الواجب عليه أن يضع بعض اللحم فى الحقيبة ، ولكن مثل هذا الاختياط البسيط لم يخطر بباله عنذاك . ولكن لاجب ، فقد كانت لديه اثنتا عشرة رصاصة فى ذلك الحين .

وحاول كنىرى ألا يفكر فى الطعام ، بل رأى أن عليه أن يقنع نفسه بالأشبع بالجوع ، لقد تناول فعلا وجبة فى ذلك الصباح . وجبة كبيرة أيضا . ولو كان لحم الفقمتين بجانبه الآن لما فكر فى تناول شيء منه فورا .

ولما رأى كنىرى أن هذه الخواطر لا تؤثر على معدته ، قرر أن يلجأ الى وسائل أخرى . ومن ثم شرب بعض الماء من البركة وشد الحزام على بطنه .

وحين اقترب اليوم من نهسايته ، تكاثفت السحب ،

واضطرب الجو ، وشرعت هبات من الرياح تعبت بسطح
الماء .

ولم يغتبط كثيرى بسوء الجو عندئذ . لان هذا قد يعنى
أن يتخلى الطيار عن البحث بل لعله يخشى القيام بجولة أخرى
بسبب سوء الاحوال الجوية .

وراح كثيرى يحملق فى سطح الماء بلا رضى . وقال
لنفسه باكتئاب « انه يشبهه بطن رجل عجوز ، وكانت
الغضون والتموجات على سطح الماء تتحول طيلة الوقت .
تدريجيا ، الى أمواج غاضبة هادرة يعلوها الزبد . حتى
أمست أبعد ما تكون شبهها بتلك التموجات الرقيقة التى
كانت تلعق أطراف الطوف الجليدى طيلة اليوم .

ومزقت الرياح جانبا من السحب ، وأبانت أن الشمس
لم تكن قد غربت بعد . ورأى كثيرى عند الافق خطا رفيعا
من الدخان المتصاعد من باخرة . وكان الدخان يتحرك ببطء
من الشرق الى الغرب . ولكنه كان على مسافة بعيدة ، أبعد
من أن يصل اليها أقوى طلق نارى . بل ان أقوى المناظير
المقربة ما كانت لتكشف عنه من هناك . ذلك أن معارج
البحر كانت واسعة ، بحيث يمكن لعشرات من البواخر أن
تمر ببحر تشوكتسك دون أن تقترب احداها من كثيرى .

وازداد الموج اضطرابا بحيث راح يقلب الاطواف
الجليدية الصغيرة ويضرب بعضها ببعض ويحطمها الى قطع
صغيرة . ولم يستطع كثيرى أن يحرك عينيه عن كسرة الطوف
الجليدى الذى تحمل لحم الفقمتين . وكان يراها لحظة طافية
بميل شديد ، وفى اللحظة التالية رآها وهى تصطدم بأطواف
جليدية أخرى وتتحطم الى قطع صغيرة . وارتعد بشدة وهو
يتخيل مصيره لو أنه ظل واقفا فوقها .

وبلغ من تعبهِ الشديد . ومما عاناه طيلة اليوم بحيث
لم يعد قادرا على التحرك بسرعة ، أو راغباً فى مزيد من
التفكير . ورغم أنه لا يكاد يقوى على الوقوف من فرط
الارهاق ، فقد أصر على أن ينصب علما قبل أن يرقد . ذلك
أن العلم سيميز الطوف الجليدى ، وربما جعله مرئيا حتى
إذا استغرق هو فى النوم .

وخلع قميصه وربطه فى الهراوة التى ثبتها فى أحد
النتوءات بالخطاف والحبل وبهذا سيكون العلم مرئيا من
بعيد ، وفى ذلك عزاؤه عن الشعور بالبرد وهو بلا قميص .

وكانت الامواج حتى ذلك الوقت اضعف من الطوف
الجليدى الذى كان اكبر منها ، فضلا عن تدعيمه بالقطع
الثلجية الكثيرة المحيطة بأطرافه ، والتي كانت تخفف من
ارتظام الامواج بها . ولكن الطوف كان ، مع هذا كله ، يتأرجح
بأشد مما كان يفعل طوال اليوم .

وربط كنيرى نفسه بالحبل الى النتوء الذى قرر أن ينام
بجواره حتى لا يتدحرج ويسقط فى الماء . وكان يفعل هذا
بطريقة لا شعورية ، وببدين ضعيفتين متخاذلتين . وشعر
بنفسه يروح فى سبات النوم حتى قبل أن يفرغ من شد
العقدة . ولكنه قاوم النوم وشد العقدة وهو يهيمهم لنفسه
« الآن أستطيع أن أنام » وسرعان ما استغرق فى نوم عميق .
عميق كالبحر نفسه .

ولم تعد الاصوات تنفذ الى مشاعره ، ولم يكن صوت
ارتظام الامواج بالطوف الجليدى يصل الى سمعيه أكثر مما
لو كان راقدا فى أعماق البحر . وبدأ كأنما لا يوجد شيء
يمكن أن يوقظه .

لا شيء الا الطنين الرتيب الذى سمعه فى اليوم السابق .
وظن كنيرى فى أول الامر أنه حلم ، ولم يشأ أن يفتح
عينيه خوفا من أن يختفى الطنين .

وبدأت الشمس الساطعة ترتفع من الأفق ، وأدرك هو
أنه لم يكن قد نام أكثر من نصف ساعة ، الا أنه شعر بقواه
ارتدت اليه ، ولعل أن يكون الفضل فى هذا لا يرجع الى
النوم ، وانما الى ذلك الطنين الرتيب الذى كان وقع فى
سمعيه أعذب من النغم .

ورأى طائرة تحوم فوق الطوف الجليدى بعد أن لمح
قائدها العلم من مسافة بعيدة ، وأدرك - من ثم - أن هناك
رجلا يرقد تحت النتوء . ونهض كنيرى وبدأ يفك الحبل عن
وسطه ، ثم وثب واقفا ولوح ببذيه .

واستدارت الطائرة واندفعت رأسا فى اتجاه الطوف
الجليدى ، وكانت تطير على انخفاض بحيث يظن الناظر أنها
قد تحاول الهبوط .

وقال كنيرى لنفسه متعجبا « ان الطيار لا يزعم قطعا
أن يهبط » وخيل اليه أن الطائرة تنطلق رأسا نحوه ، فأخفض
رأسه لا اراديا . ورغم أنه لم يكن يعرف الكثير عن الطيران ،

الا انه أدرك استحالة هبوط طائرة على طوف جليدى كهذا .
وكان من حسن الحظ أن العاصفة لم تنطلق من عقابها ، ومن
ثم هدأت ثورة البحر الى حد كبير ، ولكن اطراف الجليدى
كان يتأرجح بانتظام ولكنه على أية حال لم يكن يصلح -
لصغر مساحته - مهبطا للطائرة ، كما أن سطحه لم يكن
مستويا .

وأيا كان الامر ، فقد كانت الطائرة تزداد اقترابا ، ولم
يعد الصوت الصادر منها مجرد طنين رتيب ، وانما هدير
يزداد عنفا فى كل ثانية . ولما عجز كنىرى عن احتمالاه ،
سقط على الارض وطمر رأسه بيديه ، وفيما هو يسقط ،
لاحظ شيئا يتدلى من الطائرة .

وابتعد الهدير بنفس السرعة التى اقترب بها . ولما رفع
كنىرى رأسه رأى لفافة محكمة ملقاة بين نتوئين . وما كاد
يبدأ فى فض اللفافة حتى لاحظ أن الطائرة عادت تقترب مرة
أخرى من الطوف الجليدى . وكان فى مآذره أن يرى الطيار
بوضوح ، ومن ثم راح يلوح له باسمها ، بيده اليمنى ، دون
أن يرفع يده اليسرى عن اللفافة .

ومرة أخرى سقط شيء من الطائرة . وكانت لفافة
ثانية ، الا أنها لم تلق بالدقة اللازمة لأنها توافقت عدة مرات
ثم سقطت فى الماء . وأسرع كنىرى الى حبل الخطاف ، الذى
كان وسيلته الوحيدة لاسترداد اللفافة ، ولكن العقدة كانت
محكمة ، فلم يستطع أن يفكها فورا .

وفى خلال هذا كله ، كانت الطائرة تحوم حول الطوف
الجليدى دون أن تبدأ فى الارتفاع الا بعد أن استطاع كنىرى
أن يسترد اللفافة الثانية من الماء .

وقبل أن تبتعد ، مالت بجناحيها ثلاث مرات ، فأدرك
كنىرى أن الطيار يحييه ، وقال لنفسه « لا شك أن هذه تحية
الطيارين للغير » وللرد عليها رفع ذراعيه وانحنى بجسمه
ثلاث مرات .

وكانت اللفافتان مليئتين بالاشياء التى يحلم بها الرجل
المنعزل عن الدنيا ، فوق طوف جليدى . كان فيهما طعام
وملابس صوفية وحقيبة للاسعافات الأولية ، وخيمة صغيرة ،
ومشعل كهربائى وبطارتان احتياطيتان . وأخذ كنىرى
يفحص كل شيء من هذا كله على حدة ، وبلغ من فرط سروره
أن راح يصفر ابتهاجا .

وسرعان ما كان مرفق برمسوس يمر في مخرج داخل
الخيمة ، بينما رقد كنيرو داخل كيس النوم يدخن وينتظر
غليان الماء للشاي . انه لم يعد راغبا في الطعام بعد أن التهم
كمية من البسكويت وقطعتين من الشيكولاته أثناء فض
اللفافتين .

وكان بين جميع الاشياء في اللفافتين ، شيء واحد اثار
انتباهه الى حد كبير لانه لم يستطع أن يعرف الغرض منه .
وكان عبارة عن عصا قصيرة من مادة صلبة وخفيفة في ذات
الوقت لم يكن رأها من قبل . وكانت مجوفة وتبدو كالأنبوبة
الا أنه لم يستطع أن يفتحها رغم كل ما بذل من محاولات .
وبعد أن شرب كفايته من الشاي ، وداعب مرة أخرى تلك
الانبوبة العجيبة ، اندس في كيس النوم واستغرق فيه
فورا . وللمرة الاولى ، نام بضع ساعات متتالية

ولما استيقظ ، غادر الخيمة وتفحص سطح البحر
بنظراته ، ثم رنا الى السماء ، والى الافق . وكانت الشمس
مرتفعة في سماء صافية ، والبحر ساجيا . ورأى طائرا رمادي
اللون يتواثب على الطوف الجليدي وينقر كسرات البسكويت ،
ولكنه لم يلبث أن طار عند رؤيته لكنيرو . ثم حط فوق الماء
على مسافة غير بعيدة . وتمشى كنيرو في جوانب الطوف
الجليدي فترة ما ، ينظر الى الشروخ والنقر ، ويفحص أطراف
الطوف . وأخيرا اطمأن الى نتيجة هذه الجولة التفتيشية ،
وأيقن أن الطوف متماسك تماما . ورغم اطمئنانه الى
ما سيحدث بعد ذلك وادراكه بأنه لم ينس ، فانه لم يعرف
كيف يقتل وقت الفراغ الطويل . وظل يدخل الخيمة ويخرج
منها ويتفحص الاوراق الملونة الملتصقة على علب الطعام
المحفوظ ، ويغير بطاريات المشعل الكهربائي . وراح يضع
المحلول المطهر على خدوشه وكدماته ، بل وضمد يده اليسرى
لأنها كانت أسوأ حالا من اليمنى ، وانما لأن الضمادة عليها
لن تعوق حركته في شيء . ومرة أخرى عاد يرنو الى السماء
وينصت . . ولكن لا . ان كل شيء ساكن .

لماذا لا يلعب الشطرنج ؟ ان وجود لاعب آخر ليس
ضروريا جدا . لسوف يضع قطع الشطرنج على اللوحة تماما
كما كانت قبل أن يخسر الدور في آخر مبارياته مع ايجنتو ،
وكانت معظم القطع عندئذ خارج اللوحة ، أى لم يكن عليه الا
أن يضع قطعاً قليلة . لسوف يعيد وضعها ويحاول أن يلعب
بالطريقة التي أوصاه بها ايجنتو .

واعد لوحة شطرنج ذات مربعات صفراء وبيضاء من الارضية الثلجية وقطع البسكويت المربعة ثم دخل خيمته وصنع قطع الشطرنج بسكينة من صندوق موقد بريموس الكرتونى . ولكنه حين خرج من الخيمة وجد سربا من الطيور تلتهم قطع البسكويت وتفسد بذلك لوحة الشطرنج .

وكان مزاجه راثقا الى حد جعله لا يشعر بالغضب مما حدث . ولا شك أن أطفاله سوف يضحكون حين يخبرهم أن الطيور غلبته فى لعبة الشطرنج .

وكان الجو خارج الخيمة فى الشمس أدفا منه داخلها . والقى كنيرى سترته على الجليد، وإذا بالعصا المعدنية الغامضة تسقط من أحد جيوبها . والتقطها كنيرى ، وعندئذ كشفت عن سرها فورا فى هذه المرة . وكانت الانبوبة تحتوى على رسالة ، ويبدو أن وقوعها على الارضية الجليدية عز غطاءها الحلزونى وجعله يدور بسهولة فى يد كنيرى .

وفى لهفة عارمة فض الرسالة التى كانت مكتوبة بسرعة ، ولكن الكلمات كانت مفروعة :

الرفيق كنيرى : كنا نبحث عنك منذ ثلاثة أيام لا تفقد الامل ، لسوف ننقذك . كان أهم شيء أن نعرض عليك . وما دمنا قد فعلنا ، فسوف ننقذك . لسوف تجد كل شيء تحتاج اليه فى اللفتين ، فاذا لم تسسوء الاحوال الجوية ، فسوف نراك غدا . باكشيف

اذن فهكذا الامر . رسالة من الطيار . ولا شك أن الانبوبة سقطت مع اللقافة الاولى عندما كان منبطحا على الارض ، طامرا رأسه بيديه . « ولسوف تجد كل شيء تحتاج اليه فى اللفتين » . نعم . . . لقد كان فيهما كل ما يحتاج اليه ، وأكثر جدا مما يحتاج . اذا لم تسوء الاحوال الجوية ومع ان الاحوال الجوية لم تكن حسنة تماما ، ومع ذلك فقد غامر باكشيف بالحضور .

وازداد كنيرى ادراكا بأن هتاك الكثيرين ممن اهتموا بانقاذه ومرة أخرى فكر فى زوجته تيون وهى تهرع حزينة

الى قاميش وأنه فى هذه المرة ليتخيل الموقف من زاوية
أخرى . . فلا شك أن قاميش قد اشتد به الجزع وبادر
بارسال برقية لاسلكية الى الجهة المسئولة ، فأرسلت هذه
طائرة للبحث عنه . ولا شك أن أعضاء المزرعة الجماعية قد
أعدوا فى نفس الوقت زورقا بخاريا عند حافة الجليد ليكونوا
على أهبة الاستعداد . ولعل باكشيف قد أخبرهم الآن
بموقعه ، ولعلمهم فى هذه اللحظة ينطلقون عبر الامواج
لينقذوه .

اشخاص كثيرون جدا . . عامل اللاسلكى ، ومدير
المطار ، والطيار ، كل الناس الذين لا يعرفونه اطلاقا -
أصبحوا شديدى القلق عليه . وليس هؤلاء فقط ، آذ لاشك
أن الانباء قد وصلت الى أنادير . ومن المحتمل أن تكون فرقة
للانقاذ قد انتشرت على طول الشاطئ .

وشعر كنيرى بالضيق . أهو ، مع هذا كله ، بطل ،
أم شخصية هامة ، انه مجرد عامل تشيوكشى فى مزرعة
جماعية . . صياد بل ان شئت الحقيقة كان عاملا خاملا ،
وان المازق الذى وقع فيه من صنع يديه . لقد استسلم
للنوم عند حافة الماء ، ولم يشعر بالطوف الثلجى عندما
تحرك به .

ولكن انظر الى كثرة الاشياء الثمينة التى اسقطوها له
من الطائرة ، ترى هل الامر كله خطأ ؟ هل هو حقا المقصود
بكل هذه الاشياء ؟ نعم . . لقد بدئت الرسالة بهذه الجملة
الرفيق كنيرى . . نعم . . لا يمكن أن يكون هناك خطأ .
لقد كتب الطيار باكشيف اسمه بخط يده .

وأعاد كنيرى قراءة الرسالة . وشعر بالبهجة مع كل
كلمة ، وبالرغبة فى أن يعمل شيئا خاصا للطيار باكشيف
لقد كتب الطيار الاسم بنفسه . انه اسم جميل . وإذا كان
فى الامكان أن يختار الانسان اسما ثانيا لاسمه ، فيجب أن
اختر هذا الاسم لأحد أبنائى . . ربما كولا . . نيكولاى
كينيرفيتش باكشيف ولربما يكون لهذا الاسم رنين جميل .
وعند مساء اليوم الرابع، تم انقاذ كنيرى بواسطة الباخرة

ويلين . وكان ما حدث شيئا يختلف تماما عما تصوره
كنيرى . لقد كان يتوقع أن يرى زورق الانقاذ من بعيد ،
فيلوح له بالعلم تحية لمنقذيه ، ثم يصافح بحرارة فاميش ،
وانبينر ، ورنتوفيجى . وكان يتوقع لاسباب خاصة ، أن
يكون هؤلاء من بين منقذيه . وكان قد قرر ألا يتحدث عن
مغامراته الا اذا سألوه لسوف يجعلهم يرون أنه ليس مدعيا
متفاخرا كما كانوا يظنون .

ولكن الذى حدث كان شيئا مختلفا تماما ، فبدلا من
زورق المزرعة الجماعية البخارى ، ظهرت باخرة كبيرة . ولم
يلوح كنيرى بعلمه ، لانه كان نائما داخل الخيمة من فرط
شعوره بالارهاق من طول الانتظار . وانزلت الباخرة زورقا
حمل اثنين من البحارة الى الطرف الجليدى ، ومع ذلك
لم يستيقظ كنيرى . وشعر البحاران بشيء من القلق ، ولكن
عند اقترابهما من الخيمة سمعا غطيطة الذى طرد عنهما كل
احساس بالخوف .

